إكرام العلماء

وقتال السر رتشرد أوين

طالما اقمنا الادلة على ان للعلماء اليد الطولى في ايجاد العمران وتعزيز شانهِ وتعضيد اركانهِ وذكرنا الشواهد الكثيرة لذلك من تواريخ العرب والعجم . وقد رأينا الآن شاهدًا جديدًا عند الامة الانكليزيَّة التي تعدُّ في مقدمة امم الارض عزَّةً وغنًى فاثرنا نشرهُ ليضاف الى غيرهِ من الشواهد التي ذكرناها قبلاً : ذلك ان جماعة من العلماء والعظماء عزموا ان يقيموا تذكارًا للسر رتشرد اوين العالم الطبيعي الذي ذكرنا خبر وفاتهِ في الجزء الرابع من المقتطف فاجتمعوا لهذه الغاية في دار الجمعيَّة الملكيَّة منذ ايام قليلة برئاسة ولي عهد مملكة الانكليز وكان معهُ دوق تك واللورد كلفن والاستاذ فوستر والاستاذ هكسلي واسقف روتشستر وغيرهم من كبار العلماء ورجال السياسة وخطب فيهم ولي العهد قائلاً

لقد اكرمتموني كثيرًا بطلبكم مني الترأس على هذا الاجتماع النادر المثال فاننا قد اجتمعنا اكي نبدي إكرامنا واحترامنا لذكر رجل عظيم من رجال العلم قُبض من بيننا حديثًا ونعلن ذلك بعلامة ظاهرة . وسيبقى اسم السر رتشرد اوين على توالي الاعقاب اسم رجل عظيم اشتهر في علم التشريح وعلم الحيوان وعلم البلينتولوجيا . واظنكم تسمحون لي ان اقول كلمة عما اعرفهُ عنهُ شخصيًّا فقد عرفتهُ منذ خمس وثلاثين سنة وكنت اتردَّد عليهِ واتعلَّم منهُ ولقد ترك اثرًا لا يمحى في نفوس جميع معارفهِ بانسهِ ولين عريكتهِ فان مَن كان يسمعهُ يشرح تاريخ عظم من العظام القديمة المتحجرة كان يشعر بفكاهة حديثهِ كمن يسمعهُ يقص نادرة من النوادر الفكاهيَّة . وكان اسلوبهُ في التعليم على غاية من الوضوح والتثبت كما تعلمون ولم يكن متعجلاً في احكامهِ . وقد عظمت شهرتهُ في علم الحيوانات الحيَّة والمنقرضة وخلف في ذلك العالم كيثبه . ومن اعمالهِ العظيمة التي كانت مسرَّة حياتهِ انشاؤهُ متحف التاريخ الطبيعي الذي هو الآن تحت ادارة صديقنا السر وليم فلوَر . وقد تتذكرون المصاعب الجمَّة التي صادفها لمَّا عيِّن مديرًا لقسم التاريخ الطبيعي في المتحف البريطاني سنة ١٨٥٦ فانهُ رأى ان ما فيهِ من الحيوانات وبقاياها لا يمكن ان يعرض كلهُ ما لم يُنقَل الى مكان رحب فطلب من الحكومة ان تبني لهُ دارًا مناسبة لذلك وقدَّم المستر غلادستون طلبهُ الى البارلمنت سنة ١٨٦٣ وكان من اشد انصارهِ فرُفض طلبهُ ومن الغريب ان الذي عارضهُ فيهِ انما هو المستر دزرائيلي العظيم . وقدِّم هذا الطلب بعد عشر سنوات فقُبِل وكان لنا منهُ دار

تحف التاريخ الطبيعي التي نعرفها ونباهي بها . وكان السر رتشرد اون كثير الاهتمام بالمستعمرات البريطانية وقد جلب منها امثلة كثيرة وضعها في هذا المتحف . وكان له اليد الطولى في المسائل الصحية كما يظهر من ارتباطه بذلك الرجل الشهير السر ادون تشدوك . ولدينا الآن امور اخرى يجب قضاؤها ومتمعون فيها اقوالاً احسن من اقوالي وافصح من الرجال الفضلاء الذين سيتكلمون عليها ولذلك لا اتعبكم باطالة الكلام . واسمحوا لي ان اكرر لكم شدة رغبتي في اقامة تذكار يليق بهذا الرجل العظيم وشديد اعتباري لتخويلكم اياي الترأس على هذا الاجتماع الجليل المفيد

ثم قام اللورد كلفن (وهو الذي كان مشهوراً باسم السر وليم طمسن) وطلب ان يقام تذكار للاعمال العظيمة التي عملها السر رتشرد اون لترقية علم التشريح وعلم الحيوان وعلم البلينتولوجيا وقال انه لو لم يفعل السر رتشرد اون شيئاً غير انشاء متحف التاريخ الطبيعي لاستحق على ذلك وحده شكر الامة كلها ولكنه لم يترك فرعاً من فروع التاريخ الطبيعي الا وقد اغناه بمباحثه واكتشافاته . وفي سجل الجمعية الملكية ثلثمئة وستون رسالة علمية كتبها هذا العالم العظيم وكلها من الطراز الاول . اما من حيث معرض التاريخ الطبيعي فكل واحد من رعية الحكومة الانكليزية في جزائرها وفي مستعمراتها وكل زائر للبلاد الانكليزية يرى متحف التاريخ الطبيعي ويشعر بانه قد استفاد منه ومن ترتيب ما فيه

وقام بعده الاستاذ هكسلي وقال انه قلّ من مكنه الاحوال من معرفة اشغال هذا الرجل العظيم الذي اجتمعنا لنقيم ذكرى لاعماله اكثر مني . ولقد امتازت اعماله بطول مدتها وبارتقائه فيها مقام الشهرة بسرعة فائقة واستيلائه على ذلك المقام زماناً طويلاً فانني نظرت الى حلقة العلماء في مدينة لندن منذ اكثر من اربعين سنة ونشأت عن كثب اقيم فيه وكان في تلك الحلقة حينئذٍ اربعة انوار ساطعة الضياء اولهم هرشل وثانيهم فراداي وثالثهم ليل ورابعهم اون ولم يكن اون دونهم في شيء . وكنت اذا نظرت الى المشهورين بالعلوم البيولوجية التي كنت اهتم بها اكثر من غيرها لم اجد في المسكونة اشهر من مُلّر في برلين وملن ادوردس في باريس وقَن بير في بطرس برج ولكن ما منهم مَن كان ينوق أون علماً وتحقيقاً . وكان الرأي العام حينئذٍ ان اون هو خليفة كيفيه وان ما الّفه في التاريخ الطبيعي لا يقلّ عما الفه كيفيه فيه . الا ان اون خلف ايضاً سنت هيلر واوكن وغيرهما من كبار العلماء الذين كان كيفيه مخالفاً لهم . وقد يذكر الذين قرأوا غيثي انه حسب المناظرة بين كيفيه وسنت هيلر اعظم شأناً من الثورة الفرنسوية وسواء صحّ تشبيهه او لم يصح فلا شبهة في ان كلاً من كيفيه

وسنت هبلر كان مصيبًا من بعض الوجوه وان في المسالة مذهبًا ثالثًا فيه من الاصابة ما في مذهبيها وهذا المذهب اتسع اتساعًا لا مثيل له بتحقيقات أوين . واذا ثبت هذا المذهب وتعزز على كل المذاهب كما اعتقد فسيمدحنا الخلف لاننا اقمنا تذكارًا للاعمال العظيمة التي اتمها اوين بهمته العليَّة وتوقُّد ذهنه النادر المثال وانصابه على تحقيق المبادي التي كان متمسكًا بها

وقام بعده دوق تك وطلب ان يكون التذكار تمثالاً من الرخام يقدَّم الى المتحف البريطاني ليوضع في متحف التاريخ الطبيعي وقال لاشبهة عندي في أن هذا اليق مكان نضع فيه تمثال صديقنا الذي نحتفل به فانهُ بيته الثاني — البيت الذي اقام فيه اكثر ايامه الاخيرة وزد على ذلك انهُ يحسن بكل من يدخل متحف التاريخ الطبيعي ان يرى اولاً صورة الرجل الذي انشأ لنا هذا المتحف

ثم قام السر وليم فلوَر وقال انهُ خلف السر رتشرد اوين مرتين فمكنهُ الفرص من معرفة قيمة اعماله ولذلك ينتظر منهُ ان يتكلَّم على اعمال الفقيد واطواره ولكنهُ لم يبقَ داعٍ لذلك بعد المقدِّمة التي قدَّمها سموّ ولي العهد والكلام الذي قالهُ الاستاذ هكسلي الذي ليس احدر منهُ بالحكم في منزلة الفقيد من باب علمي . ولكنهُ رأى ان يذكر امرًا واحدًا وهو ان السر رتشرد اوين ألَّف من الكتب والرسائل ما يعجز عنهُ اعظم العلماء لكثرتهِ . ولا ينتظر ان تكون كل مؤلفاتهِ بالغة حد الدقة والتحقيق ولكنها كانت كذلك . وذكر مثالاً لذلك وهو ان السر رتشرد اوين قرأ رسالة في الجمعيَّة الملكيَّة سنة ١٨٤٧ وصف فيها امورًا غريبة في ادمغة الحيوانات ذوات الكيس وقال انها تمتاز بذلك عن غيرها من رتبتها . وقُبل قولهُ في هذا الشان نحو ثلاثين سنة بدون معارض ثم قرأ رجل آخر مقالة اخرى في هذا الموضوع امام اعضاء تلك الجمعيَّة سنة ١٨٦٥ وخالف فيها السر رتشرد اوين فقبل كثيرون من العلماء رأيهُ ولكن قام الدكتور سمتون منذ بضعة اشهر ودقق البحث في هذا الموضوع نفسهِ فانتصل الى تحقيق رأي السر رتشرد أوين . ثم قال " انني انا هو الذي كتب الرسالة الثانية وقد رأيت ان اذكر ذلك في هذا المقام اعترافًا بفضل الرجل العظيم الذي خالفتهُ سنين كثيرة "

ثم عينت لجنة لاهتمام باقامة التمثال وفيها ولي عهد انكلترا ودوق تك ورئيس اساقفة كنتربري ورؤساء الجمعيات العلميَّة وكثيرون من كبار العلماء كفوستر وهكسلي وباجت وغيرهم . وشكر السر هنري اكلند سموّ ولي العهد على انتظامهِ بينهم في هذا العمل فاجابهُ ولي

العهد قائلاً أؤكد لكم انني سررتُ بمشاركتكم في هذا المجمع وقلما كان من نصيبي ان اصغي الى خطب افصح وابدع من الخطب التي فاهَ بها هؤلاء الفضلاء . وما من احد يفوتني في الاهتمام باجراء ما عزمنا على اجرائهِ تذكارًا لصديقنا المأسوف عليهِ السر رتشرد اوين وغاية ما ارجوهُ ان يكون النضال الذي ستيمهُ له لائقًا بشأنهِ

غرائب النبات

قلَّما يرُّ فصل الازهار وتعدُّد الاثمار الاَّ ويوافيك اولادك يومًا بعد يوم بثمرة مزدوجة و برتقاله في قلب برتقاله يسألونك تعليل ذلك فلا تجد نفسك اعلم منهم بهِ . وهذه الغرائب النباتيَّة لا تقتصر على الاثمار بل تتناول الاغصان والاوراق والازهار ولكنها لم تخرج عن عادتها المألوفة وسنتها المتَّبعة الاَّ لتكشف لك القناع عمَّا في تاريخها من الاسرار فهي كالغبيِّ الذي تسكرهُ خمرة الظفر فيكشف ما يكنهُ طبعهُ ويخفيهِ وقت الحذر

اما الاغصان فاكثر ما يرى فيها من الغرائب نموُّها عريضة كالفدد ويكثر ذلك في الهليون ونحوهِ من النباتات التي تخرج اغصانها من الارض غضةً خصيبة . ذكر الاستاذ هلستد انهُ رأى غصنًا من الهليون عرضهُ نحو عشرة سنتيمترات وثخنهُ سنتيمتر واحد مع ان اغصان الهليون اسطوانيَّة كما لا يخفى . وقد شاهدنا خراعيب الازدرخت عريضة لا يقل عرضها عن اثني عشر سنتيمترًا ولا يزيد سمكها على سنتيمتر واحد وكان سطحها مضلعًا حتَّى كأنها اغصان كثيرة ملتحمة بعضها ببعض وانت ذلك اخبرًا بتفرُّع رأسها الى فروع كثيرة . وقد رأينا ذلك في اماكن مختلفة مما يدلُّ على انهُ غير نادر

ومن اغرب ما شاهدناهُ من هذه القبيل تفرُّع اغصان الصبر العادي (التين الشوكي) ولاسيما الاغصان التي تظهر من الاورمة فانها تذهب كل مذهب حتَّى تكاد تماثل انواع الصبر المختلفة في اتخاذها الشكل الكروي والاسطواني والمسطَّح والمفرَّض . وقد تتراكم الاثمار فيها بعضها فوق بعض تراكمًا غريبًا . ومما هو شائع في الصبر ظهور الثمرة والغصن (الفرط) محيط بها وهو ما يسمَّى في الشام جملاً ولهذه الجمال شكل واحد تقريبًا فان الغصن يكون كثري الشكل مسطحًا والثمرة بقرب رأسهِ مائلةً الى جانبهِ الايمن او الايسر

ومنها تفرُّع اغصان النبات المعروف باسم عرف الديك (Celosia) من قممها حيث تظهر الازهار . فانها تماثل عرف الديك شكلاً ولونًا وقد تبلغ حدًّا فائقًا في اتساعها وتجعُّدها .